كلمة ادمون رزق

في ندوة ميشال شيحا

ميشال شيحا
مُلْهَمٌ في حالِ نِعمة

موحِيَةٌ "خواطرُه"، وطنيّتُه "حضورٌ" يتجاوزُ التخوم. انسانٌ رمزٌ، مَجْمَعُ رجال.

لبنانُ شارل قرم جبلٌ مُلْهَم. لبنان ميشال شيحا دولةٌ حضارية. كلاهما قيمةٌ قائمة.

الاسلوب هو الرجل: بساطةٌ وعَفْوِيّة، لا تصنّع ولا تعجيز. سهولةٌ حتى الامتناع.

لفرطِ صفاءِ الروح، تقولُه في حالِ نعمةٍ دائمة. راسخُ ايمانٍ، موروثُه متعدّدُ الروافد، مضافاً الى مواهبَ جمّةٍ صقلتها التجربة، فحوّلَتِ الجدليةَ يقيناً.

قراءَتُه كَشْفٌ ثقافي، يشيلُ اللؤلؤَ منَ الغَوْرِ، ويضعُه في المتناوَل. خُلُقٌ وهّاج، جوّانيّةٌ طافيةٌ على المحيّا، متجلّيةٌ على الصحائف؛ نبلاً ورقيّــاً.

ملتزمٌ قضيةً، متنكّبٌ رسالةً، أداؤها اولويّته، لا حَرَجَ ولا خَشيَة.

ميشال شيحا كُلّيُّ الانتماء، مُطْلَقُ الولاء. في الوطنيّةِ لا نسبيّةَ، وفي الانسانية لا استنساب. إمّا أنك لبنانيٌّ، اولاً، قبل كل شيء وفوق ايّ شيء. او انّك خارجيٌّ. لكي تكونَ مِنْه يجب ان تكون له. الأصيلُ لا يحتاجُ تمويهَ نعوتٍ، ولا توريةَ ألفاظ. الرجالُ اكتمالٌ، الانصافُ والارباعُ ساقطةٌ منَ الحسبان. في الهُوِيّةِ لا تسوية، لا عِداءَ مسبقاً ولا استعداء. اللبنانيّةُ تَسَعُ الشرقَ، تُقرّبُ أبعادَهُ القصيّةَ، تضفي على قَسوتِه سَيْماء الجماليّة، تستدعي الغرب، في يُسرِ جَوّال.

شاعرٌ يستشرفُ الرؤى، دَفْقَ أحاسيسَ، ونَضْحَ هنيهاتٍ مكوكبة.

كاتبٌ موضوعيُّ النَهْج، بارعُ الأداء. أمينُ الخَبَرِ، دقيقُ المعلومةِ، عميقُ التحليل. فضيلةُ الصِحافي أن يكونَ قارئَ ذاتِه، وناقِدَها. "الحقيقةُ أن تُقال". المعرفةُ أن تُنْشر، تتكاثَرَ بنسبةِ ما توزّعُ. فيضُ النور لا يُنقصُ الشعاع. النورانيُّ بطبيعتِه، لانهائيُّ الضوء. ثَمَّةَ المنيرُ والمُنار، المنبعُ والمصَبّ. ولن يوضعَ مصباحٌ تحت مكيال.

ميشال شيحا على قمّةِ الفكرِ السياسي، هادفٌ وهدّاف، له شهامةُ الموقف، صوابُ الطرحِ وشجاعةُ الجَهْر. هو النوعيّةُ المأثورةُ في الزمن الطيّب، الضائعةُ في عهودِ القِلّة.

رجلُ الدستور، انطلقَ من الحاليّةِ، استوحى التاريخَ، واستشرفَ المستقبل أبعاداً. إنّه ابو النَصِّ التأسيسيّ للجمهوريةِ الاولى، والوحيدةِ، في شرقِ القَبليّة، رهينِ الرجعيّاتِ وتأبيدِ السلفيّات، المقموعِ بالتعسُّفِ والقهر.

*　　*　　*

منذ إحدى وعشرين سنة، عندما عَهِدَ اليَّ مجلس الوزراء، صوغَ أحكام "وثيقةِ الوفاق الوطنيّ" ، مشروعَ تعديلاتٍ دستورية، في خِضَمِّ احداثٍ أمنيّةٍ قاتلة، وظروفِ حياةٍ مستحيلة، وحالاتِ تمرُّدٍ وانشقاق، إبّانَ احتلالاتٍ طاغية؛ يومذاك، تحت وابلٍ من قصفٍ وقنص، والارضُ مضرّجةٌ بدمِ الشهداءِ والضحايا... انصرفتُ الى أداءِ المهمّةِ الدقيقة، فوَجَدْتُني أستوحي ميشال شيحا ونخبةَ رفاقِه في اعداد الدستور (١٩٢٦)، لكي تبقى الجمهوريةُ في الخطِّ الذي رسمَهُ آباؤها.

ولعلّ استذكارَ المؤسّسينَ الأعلام، الى تنشئةٍ مترهّبةٍ للمثُل، هي بعضُ ما جعلني أتشبَّثُ، حتى الاستماتة، بوضع نَصٍّ صريح في الدستور، يؤكّدُ التزامَ الإعلانِ العالميَّ لحقوق الانسان، الذي كان للفيلسوف شارل مالك فضلٌ اساسيٌّ في اخراجه. وسأظلُّ أُفاخِرُ بهذا الانجاز من دونِ تبجّح، وقد اقرّه المجلس النيابي في هيئته العامة.

سمحتُ لنفسي بفتح هذين المزدوجين، اثباتاً للدور الذي كان لذكرى ميشال شيحا، بعد خمس وثلاثين سنة من وفاته، في الحفاظ على روح الجمهورية؛ وفي يقيني أنَّ ايَّ لبنانيٍّ، في ايِّ زمنٍ آتٍ، لا بدَّ ان يعودَ الى فِكْر ميشال شيحا، كلَّ مرّةٍ يُطرَحُ فيها الدستور للبحث.

* * *

فـــي مقدّمةِ الطبعة الفرنسية الاصلية، الصادرة سنة ١٩٨٤ لكتاب Visage et Présence du Liban (المعرّب بديباجة خليل رامز سركيس، سنة ١٩٦٢ تحت عنوان "لبنان في شخصيته وحضوره") اهدى ميشال اسمر، مؤسس "الندوة اللبنانية" التي مَهَرتْ عقوداً من القرن الماضي، مجموعةَ محاضرات ميشال شيحا على منبر الندوة، الى الرئيس شارل حلو. لذلك اودُّ، في نهاية هذه المداخلة، أن أُحيّي ذكـــرى
العظماء الثلاثة، ميشال شيحا وشارل حلو وميشال أسمر، أرفعِ رموزِ الثقافةِ اللبنانية. ولئن كان ميشال اسمر قد بلغ في زمانِه أعلى درجات الاحتراف الثقافي، فإن ميشال شيحا وشارل حلو كانا رائدين فذّين للفكر الانساني، ورمزين للثقافة في الصحافة والسياسة، ويكفي تذكّرُهما لمعرفة كم تبدّلت مقاييسُ القِيَم، وكم يبدو لبنان في امسِّ حاجةٍ إلى هذه النوعيّة من رجال الدولة.

* * *

لقد كان من حظي، في حداثتي، أن ألقى ميشال شيحا، زميلَ ابي في الصحافة، وابنَ جيلِه، على اختلافِ لغةِ التعبير بين Le jour و"الحديث" ثم "الروّاد"، ولكنّني لم أنعمْ بمعرفته إلاّ بعد قراءته؛ كما أُتيح لي ان أُعايش الرئيس الموسوعة شارل حلو، وانهلَ من مَعينِه المعرفيّ والمناقبيّ.

فشكراً للصديق الدكتور جوزف مفرّج أخذَهُ مُبادرةَ الانتداء حولَ هذا الكبير في تاريخنا المعاصر، وتحيةً لنشاطِه وانجازاتِه النهضويةِ، في نادي الدلب.

ولن اكتُمَ فرحي بمشاركة الزملاء الكبار، الدكتور جميل جبر، والدكتور بيار دكاش، والاستاذ جورج سكاف، في هذا اللقاء.

"الدلب كاونتري كلوب"، ٢٣ ايلول ٢٠١٠ **ادمون رزق**